أ.د.ياسر إبراهيم الملاح

جامعة القدس المفتوحة – فرع بيت لحم - فلسطين

إتقان العربية وإعلاء شأنها استثمار حضاري لأمتنا

بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث للغة العربية الذي سيعقد في دبي ما بين

7- 10 أيار 2014 م – 8-11 رجب 1435 هـ

1435-2014

1)**مقدمة** :

كان اللعب، ونحن صغار، يشكل بعض طفولتنا وفطرتنا، فكنا، إذا دعانا داعيه، وله ألوان وأنواع كثيرة واستجبنا له، نؤلف فريقين متنافسين، فنلعب ما شاء الله لنا أن نلعب. وإني لأذكر أننا عندما كان الفريق يقابل الفريق الآخر تضطرم في نفوسنا حماسة مشبوبة اللهب، وكان كل فريق مسكونا بهَمٍّ واحد ٍ فقط هو الفوز على الفريق الآخر ما استطاع إلى هذا سبيلا. وفيما أعرف وأعلم أنه لم يكن، وراء تلك الحماسة القوية مطمحٌ اجتماعي أو مطمعٌ مادي، وقد كانت تصدر عنا صدورا طبيعيا كما يصدر النورُ عن النجم الساطع، أو كما تصدر الرائحة الزكية عن ورد البستان. كان صدورا طبيعيا لا اصطناع فيه، وصادقا لا مواربة فيه ولا تزييف، وكان جميلا لاذا ماتعا يروي نفوسنا الغضة بالحب والمودة والتيه والفخار والعزة، خاصة إذا تمخض عن هذا اللعب فوزٌ على الفريق الآخر، ولقد تشربت أرواحنا وعقولنا وذكرياتنا هذه التجربة تشربا لا ينفذ إليه التكلف أو النسيان.

وإنما سقت هذه التجربة مقدمة لبحث في اللغة، لأن بعض العارفين باللغات يرَوْنَ أن اللغة وتعلمها وممارستها إنما هو ضرب من الرياضة النادرة الجميلة. ولقد سقتها كذلك لأتمنى أن تكون علاقتنا بلغتنا كتلك العلاقة التي ذكرتها عن ألعابنا الطفولية. إنها علاقة تصلح أن تكون نبراسا ونموذجا ومعيارا لأي علاقة أخرى، كما بين العامل وعمله، أو بين الموصوف وصفته، أو بين السالك وسلوكه، وكم أطمح أن تكون هذه العلاقة ُهي هي بين العربي المعاصر ولغته. إنها العلاقة التي تَبْني ولا تهدم، والعلاقة التي تترسخ ولا تتقهقر، والعلاقة التي تنمو وتطَّرِد، ولا يمكن أن تتبدد أبد الدهر، وهي التي تُنقش في الذاكرة، ولا يمحوها نسيانٌ أو رحيل أو اغتراب. وليس هذا ضربا من الخيال، فقد كان يوما ما متمثلا في ماضينا المشرق والمزدهر، عندما كان للعرب حضارة لا حضارة لهم غيرها، ألا وهي حضارة الكلمة التي هي حضارة اللغة. وهذا البحث الذي يرمي إلى التأكيد على أن إتقان اللغة والانتماء إليها هو أحد العناصر الأساسية في صناعة الشخصية الممتازة التي تصلح للقيادة والعمل المتقن والإنتاج الوفير، ورأى أن الاستثمار في صناعة الإنسان وخصائصه المبدعة، ومنها امتلاك اللغة، هو السر وراء إنتاج الصرح الثقافي العربي والحضارة العربية، وأنه أعظم استثمار لإخراج الأمة الآن من الظلمات إلى النور، بدأه كاتبه بمقدمة، ثم مس مسا خفيفا العلاقة بين قوة السلطان وقوة اللغة، فقوة السلطان جعلت الغلبة للفصحى، وضعف السلطان جعل الغلبة للعامية، ثم تحدث عن منزلة العربية وأهميتها تاريخيا وعالميا، ووضح أن سر امتياز العربية يكمن في خصائصها الفريدة، وأن العربية لم تسلم من المخاطر الداخلية والخارجية، وقد استدعى هذا ضرورة الرد على من يريد الشر لهذه اللغة الربانية بالعمل الدؤوب على إتقانها وإعلاء شأنها في الأسرة والمؤسسة، ووصفة ُالترياق التي تعطي اللغة الحياة والازدهار، عنده، أن يبدأ المرء بنفسه فيسألها باستمرار: ماذا قدمت للغتي قولا وعملا؟

2) **وجهان متكاملان**:

من سُنن اللغات أن يكون في كل لغة مستويان لغويان، وهما وجهان متكاملان لحقيقة واحدة: مستوى فصيح، وآخر عامي، هكذا كان الأمر في الجاهلية، وهكذا كان الأمر في مختلِف عصور القوة من الخلافة الراشدة، وفي العصور التالية لها، كالعصر الأموي، والعصر العباسي، وغيرهما من العصور. غير أن الكِفّة

الراجحة في تلك العصور كانت أبدا هي كِفَّةَ الفصحى، لأنها لغة القرآن، ولغة الشعر، ولغة الأدب بعامة، ولأنها القدوة والمثل اللغوي الأعلى. وقد أصبح تعلمُ الفصحى وإتقانـُها، في تلك الأعصر، المَرْكبَ الذي يقود إلى المناصب الرسمية، ولذلك أخذ الأعاجم، من الداخلين في الإسلام، يتنافسون في تعلمها وإتقانها حتى برع منهم في ذلك من برع، ويكفي أن يكون من هؤلاء سيبويه وعبد الحميد الكاتب وغيرُهما. لقد كان تحصيل العلم في هذا المستوى اللغوي مما يـُشمر فيه الرجالُ عن سواعدهم، ويشدون إليه الرِّحال، وقد أصبح لغة العلم والمعرفة، في زمن قصير نسبيا، ولم يتخلف عن التنافس في تحصيله المسلم وغير المسلم. ومما يروى عن كنائس الأندلس أنها كانت تتلقي مواعظها باللاتينية، ثم تحولت إلى العربية، بعد فتح العرب للأندلس، لأن العربية أصبحت لغة كونية عالمية لا مفر من تعلمها والتخاطب بها(دراسات في فقه اللغة ص356). والذي يلحظه الدارس، في تلك العصور، أن السلطان والشعب أسسا لنظرية مهمة في البعد اللغوي، وهو أنهما معا في حبها ونصرتها ورفعة شأنها.

وهذان المستويان موجودان كذلك في زماننا، غير أن المهابة التي كانت للغتنا في الماضي، وهي تسكن قلوب الأجداد لم تعد موجودة الآن، فسكنت قلوبـَنا، وخاصة قلوب أبنائنا، مهابةٌ أخرى هي مهابة الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية، وغيرها من اللغات الأجنبية التي أخذت تزاحم العربية في مجتمعاتنا. وإني ليَحْزُنني، في هذا الزمان، أننا لما هانت علينا أنفسنا هانت علينا لغتنا. ومن المرعب أن يتنافس أبناؤنا في تعلم اللغات الأجنبية، و ينفرون من التخصص في العربية، لأن التخصص في الأجنبية فيه الفخار والتباهي، وهو، في رأيهم، يعطي هيبة واعتباراً!!! وبدعوى أخرى غير مستساغة، وهي أن العربية لغة صعبة، وهذا أمر مريب عجيب، فالعربية صعبة عند أهلها !! وهي دعوة خبيثة شيطانية يقصد منها تنفير أهل اللغة من لغتهم، ونسُوا أن شعوبا غير عربية قد تعربت في زمن قصير كما ذكرنا قبل قليل. ومن العجب أن يصبح المألوف في بلادنا أن يُعلـَّم عدد لا بأس به من العلوم باللغات الأجنبية، وهذه محاولة خبيثة كذلك، للتشكيك في العربية والتمكين للأجنبي ولغته في بلادنا، وهو فعل معكوس تماما، ولا يمكن أن يُنظر إليه على أنه طبيعي، لأن الأصل أن يـُدَرَّس أبناء كل شعب بلغتهم التي نشأوا عليها.

وهكذا نجد أن الكِفة الراجحة التي كانت للغة العربية الفصحى في عصور القوة انقلبت في هذا الزمان الذي نحيا فيه رأسا على عقب، فأصبح الرجحان للعامية الإقليمية من ناحية، ثم للغة الأجنبية من ناحية أخرى، فتبدلنا الخبيث بالطيب جهلا أو قصدا؟!؟ ولا تكاد تجد إلا نفراً قليلاً يستشعر المهانة في هذا السلوك الغريب، وهم الذين نجد فيهم بقية نخوة من المختصين والمتعاطفين مع العربية وتراثها. ألست تجد معي، بعد هذا كله، أن هناك ارتباطا بين قوة اللغة وبين قوة السلطان ؟!؟! وكذلك بين ضعف اللغة وبين ضعف السلطان ؟!؟! غير أن العربية الفصحى عصية على الانكسار أبدا لأن لها منزلة وأهمية لا يتوافران لغيرها.

3)**منزلة العربية وأهميتها:**

لا خلاف في أهمية اللغة بعامة، لأنها من الكنوز أو النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، ولا يمكنه الاستغناء عنها كما لا يستغني عن الماء والهواء، كما أنه لا خلاف في أهمية اللغة العربية بخاصة إلا عند من قاده الجهل بأهميتها إلى أن يستخذي للأجنبي في كل شيء. وليس مستغربا، إزاء هذا كله، أن يعبر هنري بر

الذي كتب تصديرا لكتاب " اللغة " لفندريس عن أهمية اللغة بقوله :" اليد واللغة فيهما تنحصر البشرية " (فندريس ص1 والراجحي ص64).

وللفصحى قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة لأنها الحصن الثقافي الذي يحمي كيانها، والأداة التي تحمل أفكارها وتنقل مفاهيمها وتراثها الأدبي والعلمي والخلقي، وهي إحدى العناصر المهمة في انتظام شخصيتها وحفظ هويتها، وهي التي تصنع روابط الاتصال والتقارب والتشابه والانسجام بين أبنائها في الماضي والحاضر والمستقبل. إن القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار، والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي. ومما قاله الفيلسوف الألماني فيختة في هذا السياق : ((اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصاً خاضعاً لقوانين. إنها الرابطة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان)). ويقول الراهب الفرنسي غريغوار : ((إن مبدأ المساواة الذي أقرته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظف أمام جميع المواطنين، ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية يؤدي إلى محاذير كبيرة، وأما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة فيخالف مبدأ المساواة، فيترتب على الثورة - والحالة هذه - أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية؛ وذلك بمحاربة اللهجات المحلية، ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين)). ويقول فوسلر:((إن اللغة القومية وطن روحي يؤوي من حُرِمَ وطنَه على الأرض)) . ويقول مصطفى صادق الرافعي:((إن اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة. كيفما قلّبت أمر اللغة - من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها - وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها)). وقد صدر بيان من مجلس الثورة الفرنسية يقول : ((أيها المواطنون : ليدفع كلاً منكم تسابقٌ مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا لأن تلك اللهجات رواسب من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد)). (اللغة العربية ومكانتها بين اللغات،ص 1)

أما عن أهمية اللغة العربية فيمكن أن يكون الحديث فيه قسمين: قسم يتناول أهمية اللغة العربية للعرب وآخر يتناول أهمية اللغة العربية للتراث الإنساني. أما عن القسم الأول فإن اللغة العربية للعرب بمثابة الروح من الجسد، وبمثابة الماء للأحياء، فهي التي حفظت كتاب الله المجيد ومعجزة الإسلام الكبرى، فحفظها الله لذلك على مدى العصور. ويكفي فضلا لهذا الكتاب أنه أخرجهم من الظلمات إلى النور، فما كان منهم إلا أن حملوا هذا الدين إلى الناس جميعا :" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (الأنبياء 107). وقد يرجع الفضل الأكبر، في توحيد هذه الأمة في الماضي والحاضر والمستقبل، للغة العربية. وتعتبر اللغة العربية من أفضل الوسائل لمعرفة شخصية الأمة العربية وخصائصها، وهي الأداة التي سجلت منذ أبعد العهود أفكار هذه الأمة وأحاسيسها (فقه اللغة وخصائص العربية، ص228). ويكفي العرب فخرا أن هذه اللغة الشريفة قد أصبحت لسان شعوب كثيرة تعربت بعد أن دخلت في دين الله أفواجا، ومن أعجب العجب في هذه الظاهرة حماسة هؤلاء الناس للعرب واللغة العربية وتعصبهم لهما كما فعل الزمخشري يعبر عن هذا وقال:

" اللهَ أحمدُ على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجْدِ عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين...ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها، حيث لم يجعل خَيْرة رسله وخير كتبه، في عجم

خلقه ولكن في عربه، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج... "(مقدمة المفصل في علم العربية للزمخشري ص2و3). ومن العجب أن نجد هؤلاء الأعاجم الداخلين في الإسلام، يَنـْبَرون لخدمة العربية، فيشاركون في تقعيد قواعدها، فكان منهم علماء النحو وعلماء الصرف وعلماء البلاغة، ومنهم من وضع المعاجم، ومنهم من انبرى للتفسير، وغير ذلك مما يخدم الإسلام ولغته العربية. وهكذا أضحت اللغة العربية في فترة وجيزة من الزمن اللغة الحضارية الأولى في العالم القديم.

وأما عن القسم الثاني فاللغة العربية من أقدم اللغات التي ما زالت تتمتع بخصائص فريدة في الأصوات والصرف والنحو والدلالة، وبقدرة هائلة على التعبير عن كل المستجدات الصناعية والعلمية، و قد اعترف بهذا النضج ثلة من العلماء الغربيين المنصفين، فيقول رينان:" اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال، وهذا أغرب ما وقع في تاريخ البشر، فليس لها طفولة ولا شيخوخة". ويقول فريتاخ : " اللغة العربية أغنى لغات العالم". ويقول وليم ورك : " إن للعربية ليناً ومرونةً يمكنانها من التكيف وفقاً لمقتضيات العصر" (اللغة العربية ومكانتها بين اللغات،ص3). ونظرا لأن اللغة العربية أداة التواصل بين ملايين من البشر المنتشرين على وجه الأرض، من العرب والمسلمين والمستعربين، فقد اعتبرتها الأمم المتحدة إحدى اللغات الأساسية التي يصح التعبير بها من على منبر جمعيتها العامة. إن اللغة العربية اليوم لغة تحمل رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها، ولغة حضارة إنسانية واسعة اشتركت فيها أمم شتى كان العرب نواتها الأساسية، والموجهين لسفينتها، ومما يسعدنا ويثلج صدورنا أن هذه الأمم اعتبرتها لغة حَضارتها وثقافتها، فأضحت لغة العلم والسياسة والتجارة والعمل والتشريع والفلسفة والمنطق والتصوف والأدب والفن.

وإن من يراقب الدول الإسلامية وغيرتها على اللغة العربية وتشجيع أبنائها على تعلمها يدرك أن هذه اللغة من أهم اللغات التي تساعد البشرية على التفاهم والتقارب، وزراعة الحب والخير بين البشر، ولا ريب في أن وراء ذلك إيمانا عميقا بالقرآن وبالإسلام بعامة. وتزخر المكتبات العالمية اليوم بنفائس من المخطوطات المدونة باللغة العربية، وهي نفائس فكرية ليست ملكا للعرب وحدهم، بل إنها جزء عزيز من التراث الإنساني يصل ماضي الشعوب بحاضرها، ولم يكن إنتاج هذا التراث على أيدي المسلمين وحدهم، بل اشترك في إنتاجه المسلمون واليهود والمسيحيون والصابئة وغيرهم، مما يضع بين أيدينا نموذجا فريدا للوحدة الإنسانية باللغة العربية. و مما يُسَجَّلُ للعرب ولغتهم أنها كانت المستودع الأمين لحفظ تراث اليونان والرومان والهنود والفرس، فلولا انكباب العرب والمسلمين على قراءة ذلك التراث، وترجمته، وتدوينهم له في مؤلفاتهم، لضاع كثير منه. فهل لهذا الامتياز من تفسير؟!؟

4)امتياز العربية في خصائصها:

من طبائع البشر أنه إذا امتاز أحدهم بمال أو جاه أو سلطان أو علم كان هدفا لسهام الطامعين والطاعنين والحاقدين، ولعل الذي جعل اللغة العربية هدفا لسهام أعدائها هو امتيازها عن غيرها من اللغات بخصائص انفردت بها، ونذكر منها:

1-**انتشار العربية في العالم:** بلغ انتشار العربية مدى جغرافيا واسعا بعد تعرب شعوب بكاملها، واتخاذها العربية لسانا لها، وذلك بفضل دخولها في الإسلام، فكان الإسلام عاملا قويا في هذا الانتشار. وعلى الرغم من هذا الانتشار الذي بلغ غايته في العصور الوسيطة فإنه أخذ ينحسر في أيامنا هذه، وأيام سبقتها بقليل، لأسباب كثيرة لعل أهمها انحسار السلطان العربي والإسلامي عن المسرح العالمي، فأدى هذا إلى سيطرة دول الاستعمار على الحياة العالمية لاتساع نفوذها وقدرتها العسكرية. وعلى الرغم من هذا الواقع المرير

فإن الظروف مهيأة تماما إلى أن تستعيد العربية رقعة انتشارها إذا وَجَدَتْ من أهلها النشاط والإخلاص في العمل، وللخصائص الحيوية التي تتمتع بها بنية اللغة العربية.

2-**ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم:** إن ارتباط العربية بالقرآن الكريم جعلها لغة مقدسة ربانية، وساعد على حفظها من التشرذم والتفكك، ويندر أن تجد لغة يتحد فيها ماضيها البعيد لفظا ودلالة بحاضرها القريب كما هو الحال في العربية، فالدارس للغة العربية يمكنه أن يفهم نصا شعريا معقدا فهما إجماليا لامرئ القيس قاله قبل 1600 عام، بينما لا يستطيع طالب إنجليزي أن يفهم نصا سهلا لأحد شعراء الإنجليز قيل قبل 500عام. فهذا الارتباط بالقرآن جعل شخصية اللغة تمتاز بالثبات والاستقرار مع قدرة هائلة على استيعاب الجديد في الدلالات والألفاظ. ولهذا فإن ملايين المسلمين المنبثين في مختلف أصقاع الدنيا تدفعهم أشواقهم الدينية والعاطفية إلى الحنين إلى هذه اللغة، وهم يشجعون أبناءهم على تعلمها ليُحْسنوا قراءة القرآن الكريم.

3-**خصائصها الفنية:** يجمع عدد كبير من العلماء الذين كانت لهم صلات علمية باللغة العربية، أي أنهم درسوها وتخصصوا في أحد جوانبها، أن اللغة العربية لها خصائص فنية على مستوى الأصوات والمفردات والنحو والدلالة تتفوق فيها على غيرها من اللغات، وسنسرد شيئا منها لتوضيح الفكرة وفق الآتي:

أ- **الصوت ومخرجه وعلاقته بمعناه:** من أبرز سمات اللغة العربية في مجال الأصوات أنها أوسع اللغات الإنسانية في المخارج، فمَدْرَجُها الصوتي يمتد من الشفتين إلى الحَنـْجرة، بينما ينحصر المدرج الصوتي في معظم اللغات في مساحة أقل. وأما علاقة الأصوات العربية بمعانيها فتعود إلى محاكاة الأصوات الطبيعية وإلى قواعد صرفية واشتقاقية، كالاشتقاق العام الذي يعطيك معنى عاما يتحقق في كل كلمة يوجد لها أصل ثلاثي مؤلف من أصوات مرتبة على نحو معين، فكل كلمة توجد فيها الأصوات الثلاثة بالترتيب نفسه الذي وجد في الأصل تحمل هذا المعنى العام وتختلف بما يضاف إليها من لواصق تـُضَيِّق المعنى أوتـُوَسِّعه.

ب- **كثرة المفردات وترادفها:** تمتاز العربية باتساع مفرداتها اتساعا تتفوق فيه على أخواتها الساميات جميعا، وكذلك ما يجتمع فيها من المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال، وربما يندر وجود مثل هذه الظاهرة في لغة من لغات العالم. فمثلا يندر أن نجد للأسد في لغة غير العربية خمسمائة اسم، وللسيف ألف اسم، وللعسل ثمانين اسما، وللداهية أربعمائة اسم، وهكذا. ويساعد نظام الاشتقاق في استخراج عدد كبير من المفردات من المادة الواحدة، فمثلا يمكننا اشتقاق أكثر من سبعين كلمة من الجذر الواحد (علم الصرف، من مؤلفات جامعة القدس المفتوحة، ط 2009، ص162).

ت- **الدخيل والمعرب** : لقد اتسعت العربية لعدد كبير من الألفاظ الدخيلة إليها من اللغات الأخرى، وقد وجد هذا في القرآن والشعر الجاهلي وأصبح سنة لا تتخلف في حياة العربية لمرونتها واتساعها عندما تحتك بغيرها من اللغات حتى يومنا هذا.

ث- **قواعد النحو وظاهرة الإعراب** : بلغت دقة قواعد النحو العربي مبلغا يندر أن يكون له مثيل في اللغات السامية أو اللغات الأخرى. و تتمثل ظاهرة الإعراب في أصوات مد قصيرة (الحركات) تلحق أواخر أغلب الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة في الجملة وعلاقتها بعناصرها الأخرى.

ج- **البلاغة والبيان** : يكثر في اللغة العربية استعمال الألفاظ والتراكيب في غير ما وضعت له لأغراض بلاغية لخدمة المعنى توضيحا أو مبالغة في إبانته، أو إخراجه في أقل قدر من اللفظ ، أو عرضه عرضا جميلا جذابا. ويتضح هذا في المجاز بأنواعه، وفي الكناية بأنواعها، وانتقال الدلالة

بأنواعها. وقد كان لهذه الصور البلاغية أثر كبير في سمو الأساليب العربية، وشدة تأثيرها في النفوس وقوة بلاغتها وحسن بيانها وسلاسة تعبيرها ومطابقتها لمقتضيات الأحوال. وقد ضرب القرآن بسهم وافر في هذا المجال إذ كان له وقع السحر في نفوس العرب، وكان مما اتهم به الرسول، صلى الله عليه وسلم، أنه يقول كلاما يفرق به بين المرء وزوجه، أي كما يفعل السحرة. وكان للمجاز والنقل أثر عظيم في اتساع العربية للعلوم والفنون وللحضارة والمدنية على اتساع مجالاتها، ولم نشهد تعثر العربية أمام أي مظهر من مظاهر العلم أو الحضارة.

ح- **الإيجاز**: وهو مظهر ملموس تماما في اللغة العربية كما يتضح في أصوات العلل، فالعلل في اللغات الأجنبية تأخذ حجم الحرف بينما في اللغة العربية لا تستخدم إلا عند الضرورة فوق الحرف أو تحته. ويعتبر الإدغام إيجازا لأنه يحل فيه حرف مكان حرفين، وكذلك الإضافة. وقد تتكون الجملة من حرف واحد فقط كقولنا : ع ِ، وهي جملة أمرية لما يتضمنه الفعل من ضمير مستتر، ومما قاله د. يعقوب بكر في هذا السياق:" إذا ترجمنا إلى العربية كلاما مكتوبا بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية أقل من الأصل بنحو الخمس أو أكثر"(اللغة العربية ومكانتها بين اللغات،ص 12).

خ- **علاقتها بأخواتها الساميات** : لقد رجح العلماء أن العربية، باتساعها لخصائص اللغات السامية عامة في الأصوات والجذور والمفردات، وبزيادتها عليها في كثير من الخصائص، هي أم اللغات السامية جميعا، فاقترح بعضهم تغيير مصطلح "اللغات السامية" إلى مصطلح " اللغات العربية".

ولهذا الامتياز والتفرد واجهت العربية أخطارا سنقف على شيء منها في النقطة التالية.

5)<u>الأخطار التي تواجه العربية :</u>

من المؤسف أن حياتنا المعاصرة لم تنأ بنفسها عن همجية المغالبة والسيطرة والصراع والإخضاع والخضوع، ففي مناخ طغيان هذه الثقافة فإن الكيان العربي والإسلامي مهدد في وجوده وحريته، ولنا في تاريخ الاستعمار الأوروبي القديم والحديث أدلة صارخة ملموسة، وما زالت آثارها ماثلة بين ظهرانينا. وليس هناك أي شك في أن استمرار هذه السياسة وثقافتها، واصطناع وسائل خفية لاستمرارها، ومحاولات تعريف هذه الثقافة بتعريفات علمية في ظاهرها وعدوانية حاقدة في باطنها، سيقود إما إلى المهادنة والاستسلام، أو إلى المواجهة والرد، ولا يمكن للأمة العربية والإسلامية أن تقبل الاستكانة والعبودية، فلم يبق إذاً أمامها إلا المواجهة إذا أرادت هذه الأمة أن تحفظ كرامتها ووجودها.
فإذا كان ذلك كذلك، وهو بين واضح، ولا يجحده أو ينكره إلا أعمى البصيرة أعمى البصر، فإن علينا أن نهب للحفاظ على وجودنا ومقومات شخصيتنا، وإن من تحصيل الحاصل لمن يريد الحفاظ على وجوده وشخصيته أن يحافظ على لغته لأنها أداة مهمة لإثبات الهوية والثقافة والكيان الإنساني الحر. وعليه، فإن إعلاء شأن لغتنا وإتقانها، ليس بالكلام فقط، بل بالكلام الذي يعقبه فعل ناجح محسوس صادق تُرى آثاره ونتائجه رأي العين، لهو خطوة متقدمة جدا في مقاومة ما يراد بنا وبلغتنا من هوان وضعف حتى لا نبقى سوقا استهلاكية للطامعين في نهب خيراتنا واستغلال وجودنا لمصالحهم.

وانطلاقا من هذا التصور فإن اللغة العربية لم تنجُ من الاستهداف وزراعة الأخطار وفق برامج منهجية بغيضة، ومما يؤسف له أن هذه الأخطار كانت من داخل الأمة ومن خارجها.

أما عن **الأخطار الداخلية** فلعل أهمها :

1- ازدراء اللغة العربية عند نفر لا يستهان به من أبناء العربية، وليس لهذا الازدراء من أسباب إلا الإخفاق والعجز في إتقانها، واستحكام الانهزامية في نفوسهم، والافتتان بالغرب الذي لم نر منه إلا الاستعمار والطمع في خيراتنا، والسعي دائما إلى إذلالنا والسيطرة علينا. فبدلا من الازدراء، يجب الإيمان بأن تعلم العربية وإتقانها ضرورة من ضرورات الانتماء الحضاري، وهو عبادة وواجب ديني كفرض الصلاة والصيام للمسلم، فهل يؤمن العرب بهذا كما يؤمن به غيرهم من مسلمي العالم الذين يتسابقون على تعلم العربية **!؟!؟**

2- تحكم العامية في ألسنتنا وسلائقنا وانتشارها انتشارا كبيرا غزا البيت والشارع والتدريس الإلزامي والثانوي والجامعي والحياة الإعلامية والفنية كالمسلسلات والمسرحيات وغيرها من مجالات الحياة. ولا ريب، عندي، في أن الارتماء في أحضان العامية والابتعاد عن الفصحى، وتعلل بعضهم بأنه لا يغير لهجته أو لغته حفاظا على الأصالة الشخصية أو الإقليمية، لهو خطأ حضاري وعجز يبعث على الألم والسخرية.

3- سعي بعض الناس في المجتمعات العربية إلى بناء مدارس ومؤسسات تتخذ اللغات الأجنبية ألسنة للتدريس الابتدائي والثانوي والعمل، فالمصارف مثلا لا يوظف فيها إلا من يتقن التعامل باللغة الإنجليزية، فينتج عن ذلك طلبة يعرفون اللغات الأجنبية، ويخفقون في تعلم العربية وإتقان التعبير الجيد بها، بل إن هذا يدفعهم إلى كراهيتها والنأي بأنفسهم عن تعلمها.

4- هناك فئات في المجتمع العربي تسعى إلى التأسيس للغة العامية برفع مستواها من اللغة المنطوقة إلى اللغة المكتوبة. ولست أشك في أن هذا الصنيع حرب على منظومة قيمنا العليا التي تشكل العمود الفقري لوجودنا الحضاري والإنساني والتي تأخذ فيه الفصحى وخطها موقع واسطة العقد.

5- عدم اكتراث الناس لما يقعون فيه من أخطاء لغوية سواء أكان هذا عندما يتحدثون أم كان هذا عندما يكتبون، وإذا وجه إليهم النقد في هذا المجال فإنهم، كذلك، لا يكترثون إلا من عصمه الله، وهداه إلى حسن الاستماع والغيرة، ولكنه غير قادر على إصلاح لغته.

6- خفوت الوازع الديني الذي يدفع صاحبه إلى قراءة القرآن، وحفظ نصوص وافرة منه، لإثراء الذخيرة اللغوية عند الإنسان العربي والمسلم، لأن القرآن أعظم نص لغوي عربي على الإطلاق لقوة صياغته وجمال أسلوبه وغنى معجمه اللفظي وعلو كعب فكره.

7- الطعن في العربية وخطها والدعوة إلى استبدال الخط اللاتيني بالخط العربي، غير أن هذا لم يصل، داخل المجتمع العربي، إلى نتائج ملموسة كما كان هذا في تركيا مثلا (فقه اللغة وخصائص العربية، ص240).

وأما **الأخطار الخارجية** فتتمثل في الأمور الآتية التي هي غيض من فيض فبعضه ظاهر وكثير منه مستور:

1) تخطيط الاستعمار، إبان سيطرته على مقدرات الأمور في العالم الإسلامي والعربي، لإضعاف العربية، وصرف الناس عن تعلمها وتعليمها، وتشجيعه على تعلم اللغات المستعمرة، كما هو معروف عن الاستعمار البريطاني في مصر وخطط اللورد كرومر. ومما قاله ويلكوكس الإنجليزي : " إن العامل الأكبر في فقد قوة الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم اللغة العربية الفصحى في القراءة والكتابة". وقد عمد الإنجليز في مصر إلى جعل التعليم في المراحل الأولى باللغة الإنجليزية تمهيدا لجعل مصر بلدا إنجليزيا في الكلام والتفكير والانتماء كما حاول هذا الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

2) نجاح الاستعمار كذلك في محاربة الحرف العربي الذي كان يستخدم في ألفبائيات عدد كبير من اللغات التي تتكلمها الشعوب الإسلامية، كالتركية والأندونيسية، وفي السودان وعدد كبير من دول أفريقيا.
3) كثرة المخترعات الفنية كالهواتف الذكية وأجهزة الحاسوب التي تجذب الشباب العربي وغيرها، وإغراق هذه المخترعات بالبرامج الموجهة توجيها سيئا لأن مخترعيها ذوو ثقافة مخالفة تماما لثقافتنا، وعدم وجود بديل عربي أو إسلامي مكافئ لملء فراغ شبابنا بما يفيدهم ويثري ثقافتهم.
4) التشكيك في نشأة النحو العربي وفي قدرة العقلية السامية التي ينتمي إليها العرب على ابتداع علم ناضج ومكتمل كالنحو العربي، لأن العقلية السامية، عند رينان، وعند غيره من المستشرقين غير المنصفين، ضعيفة ومخفقة في كل شيء.(انظر: تاريخ اللغات السامية: ص13).
5) ادعاء بعض المستشرقين أن النحاة أخذوا التقسيم الإغريقي لأنواع الكلم(اسم وفعل وحرف)، وكذلك بعض المصطلحات كالإعراب والصرف والقياس والحركة، وهو اتهام مغرض انبرى للرد عليه عدد منهم كالمستشرق ليتمان وغيره.(النحو العربي والدرس الحديث، ص 62؛ المستشرقون ونظرياتهم، ص 41) .
6) الترويج لدعوات نشأت في الغرب، كالدعوة إلى تطوير قواعد اللغة العربية تارة، أو تيسيرها تارة أخرى، وكذلك الدعوة إلى العناية باللهجات العامية وآدابها، لصرف الاهتمام عن الصرح الثقافي العربي الذي هو روح العربية وجوهرها، وما كان للخلف أن ينحرف قيد أنملة عن منهج السلف الذي كان يجتهد في فهم قواعد اللغة، وفي تعلمها، دون الإصغاء إلى صرخات العجزة من المتعلمين، لصيانة شخصية الأمة ووحدتها، ولأنه ليس كل ما يصلح للغرب يصلح لنا.(د. محمد محمد حسين، مقالات في الأدب واللغة، ص47)

ولا يغرنّك، في هذا المقام، ما يقوم به المستشرقون من بحوث في العربية، ودراسات في الثقافة الإسلامية، فهم لا يفعلون هذا إلا لمعرفة مواطن الضعف في نظرهم، ولإيقاد نيران التشكيك التي يتشربها طلبتنا المبعوثون إلى جامعاتهم ليصبحوا معاول هدم فتاكة.

فما العمل إزاء هذا كله؟ إنه الرد والمواجهة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا سبيل إلا هذا.

6) **الرد والمواجهة :**

لن يكون الرد على أعداء العربية بالخُطَب والتنظير، ولا مناص من أن يكون الرد عمليا. وإذا كان معظم المختصين في هذا الشأن يوجهون اللوم إلى الفرد العربي وتقاعسه عن خدمة لغته قولا وفعلا، فقد آن الأوان لنا جميعا أن نقف وقفة حساب مع الذات، فما الذي قدمه كل منا لنصرة هذه اللغة وإعلاء شأنها مبتعداً عن التناقض بين القول والفعل، وماضيا إلى الأمام في هذه النصرة حتى يحقق في كل يوم يحياه انتصارا ملموسا لا يختلف في قيمته مع نفسه ولا مع الآخرين؟!؟ (انظر: مقالات في الأدب واللغة، ص12) وسنحاول، فيما يأتي من صفحات، رصد المجالات التي يمكن للفرد أن يقدم فيها خدمة ملموسة للغة العربية، أو أن يسعى لإحياء هذه اللغة ورفعة شأنها إلى أن يشاء الله تغيير أحوال هذه الأمة، فتتغير مع ذلك أحوال لغتها إن شاء السميع العليم. وتتوزع هذه المجالات التي ألمحنا إليها سابقا على النحو الآتي : مسئولية الفرد، ومسئولية البيت، ومسئولية المؤسسة التربوية، ومسئولية البلدية، ومسئولية الإعلام، ومسئولية البعثات، ومسئولية السياسي.

أما **مسئولية الفرد** تجاه لغته العربية فهي مزدوجة تجاه نفسه وتجاه الآخرين. إن تعلم القراءة والكتابة سلوك حضاري يطمح إليه كل إنسان يستطيع التفرقة بين الأعمى والبصير. وإني لست أدري كيف يصبر مخلوق على احتمال العمى مع إمكانية التخلص منه بتعلم القراءة والكتابة!؟! وتتباهى الأمم اليوم وتحتفل بالتاريخ

الذي حققت فيه انتصارا على الأمية، كما أن بعض الأمم تعاقب الأسرة التي لا ترسل أبناءها إلى المدرسة، لأن في ذلك ظلما وجورا على الإنسان وحقوقه، كما أن في ذلك التصرف المشين اعتداء على حق المجتمع وتعطيلا لطاقاته الواعدة. و قد أصبح الصغير والكبير في هذا سواء، لأن التعليم أصبح في أيامنا هذه متاحا للصغار وللكبار على حد سواء. أما واجبه تجاه الآخرين فيتعلق الأمر حيثما كان الفرد مسئولا، فإذا كان مسئولا عن أسرة، أو عن مؤسسة، أو عن أي مرفق من مرافق وطنه، فيجب عليه أن يفكر فيمن هو مسئول عنهم إذا كانوا لا يتقنون وجها من وجوه اللغة المكتوبة أو المنطوقة، إنه واجب خالد يدخل في باب إخراج الناس من الظلمات إلى النور. ونحن لا نحب أن نبالغ، في مسئولية الفرد، كما بالغ طه حسين عندما قال: "إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بل في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضا"، ولكننا نرى أن إتقان العربية مظهر حضاري يزيد المرء حكمة وأدبا وعقلا. وأما **مسئولية البيت**، في هذا المجال الذي نتحدث عنه، فهي مهمة جدا، ولا يسبقها في الأهمية أي مجال آخر. فما المطلوب من الوالدين في المسألة اللغوية؟ إن البيت أهم خلية في الجسم المجتمعي، وعليها يعتمد المجتمع في بناء ذاته وتحصين عدته الإنسانية، ولا ريب في أن اللغة أهم عامل من عوامل الترابط والتماسك في هذا المجتمع الصغير، ولذلك من الطبيعي جدا أن يحرص الوالدان على صحة الرابط اللغوي وقوته وتنقيته من الشوائب التي قد تضر به أحيانا. إن المفترض في الأسرة العربية أو المسلمة أن تعرف رسالتها في الموضوع اللغوي، ومن الطبيعي أنه إذا كان من مسئولية ولي الأمر في الأسرة أن يعي هذا الأمر بوضوح مع أدلته الشرعية من القرآن والحديث، أو أدلته الإنسانية والعلمية، فإن الأولاد إذا اعتادوا على التحدث في هذا الأمر فلا مناص من أن يكون باللغة الفصحى، وهذا سيُمَكِّن لهم ذخيرة لغوية ناضجة، وشيئا فشيئا تصبح هذه اللغة والمفاهيم جزءا من حياتهم اللغوية والحياتية. وفي هذا السياق نجد أن تعليم الصلاة للأبناء والمواظبة عليها من أرقى الوسائل التي تعلم الإنسان بعامة، والأبناء بخاصة، اللغة الفصيحة، فما يردده المصلي من آيات وأدعية صيغت في أجمل بيان، ما تلبث أن تغزو قاموسه اللغوي فتصبح بعد حين جزءا رئيسا من أسلوبه التعبيري، وهكذا الأمر بالنسبة للتردد على مصادر الاحتجاج اللغوي من قرآن وحديث وشعر وأمثال وخطب ورسائل وأغان ومسرحيات فصيحة. أما الذين يتربعون، صباح مساء، على موائد الأغاني الغربية، والثقافات الأجنبية، فهم كمن يزرع نبتة في صحراء جافة، بلا ماء وبلا هواء، فمن أين تأتي هذه النبتة الحياة والنضارة والجمال الطبيعي!؟ إن مثل هذا الواهم لن يجد من نبتته تلك إلا الجفاف وإقامة مراسيم الجنازة عليها !! غير أن الذي يحدث في أغلب البيوت العربية المعاصرة هو أن الأب أو الأم لا ينهضان بشيء من هذه المسئولية الجسيمة، بحجج أني سأستمتع بالحياة! أو ليس لدينا وقت! أوبالزيارات التي لاتسمن ولا تغني من جوع! وهكذا يضيع تعليم الأولاد، وتضيع تربيتهم، وبالتالي تضيع لغتهم. إن المفاهيم الرخيصة التي تسيطر على أغلب بيوتنا هذه الأيام، مع الابتعاد عن التفكير في هموم الأبناء وهموم الأمة، هي التي تبعد الأبناء عن اللغة الفصحى وجِوائها الثرة فكرا ونطقا وعذوبة بلاغية. ولْتعْلم الأم التي تضحي بزيارة ما، أو استمتاع ما، لمصلحة أبنائها ولإعدادهم لمصالح الأمة وطموحاتها أن تضحيتها هذه بطولة. وليعلم العربي الذي يتقاعس عن تربية أبنائه لغويا أنه يقدم هدية مجانية لمعسكر المعادين للعربية ويخسر في الوقت نفسه حصنا من حصوننا المستقبلية.

فأول مسئولية للوالدين أن يدركا أهمية اللغة، وأهمية استخدامها في البيت، ليتحقق عنصر الاستماع في مهارات اللغة، وما أجملَ أن يكون هناك تنافس في حفظ سور من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية أو القصائد الشعرية! أو الأمثال الفصيحة، ثم يرتقي الأمر إلى تدبير حلقة حوار ونقاش في شأن من شؤون

البيت أو الدولة أو الأمة، فيكون الحوار بالفصحى. ومن أجمل ما يقدمه الأب أو الأم لأولادهما أن يُصرا على التحدث بالفصحى في أكثر الأوقات بصورة طبيعية لا تكلف فيها ولا اصطناع، وأن لا يغلبهما الخجل أو الملل عن المضي في هذا الأمر، فإذا كان هذا الذي وصفت على النحو الجاد فإن الخير سيكون وفير العطاء.

<u>أيتها الأم</u>، أنت تمنحين وليدك اللبن الطبيعي، ليكون جسمه قويا مقاوما للأمراض، ولِيَمُنَّ اللهُ عليه بالشباب والرجولة المثمرة لكل الخير له، ولأمته، وللإنسانية جميعا، فامنحيه كذلك **اللبن اللغوي** ليكون أجمل وأقوى وأعطى. **<u>أيها الأب</u>**، وأنت كذلك تعطي لوليدك الكثير من الحب والرعاية والمال والسكن والصحة، فلا تبخل أو تتكاسل عن إتمام واجبك اللغوي الذي يجعل وليدك أنضج وأكمل وأبقى، والله يحفظكما لأولادكما ويقر عين الأمة بما قدمتم وأعطيتم.

إن البيت هو مصنع الرجال الممتازين وهو مصنع الفتيات الممتازات ربات البيوت، وهو مصنعٌ رأسماله الحب والفضيلة والخلق والشرف الرفيع، وفوق هذا كله، حب الله والإيمان به، والطمع في جنته والخوف من ناره، فإذا كان هذا كله الأساس الذي أقيمت عليه أعمدة هذا البيت فإنه سيكون، بإذن الله، بيتا عامرا بالبناء الإنساني والبناء اللغوي، وسيكون هذا لبنة سليمة قوية في بنيان الأمة ومستقبلها. ومن فضل الله علينا، نحن العرب والمسلمين، أن زادنا اللغوي كثير، وما أنتجه أجدادنا من هذا الزاد يشكل صرحا شامخا يطيب لكل عاقل أن يمضي الكثير من الوقت في ظلاله، فكيف إذا أتيح له أن يتربع في غرفه وجنباته **!؟ !**

البيت الذي تبنى فيه شخصية المرء منذ طفولته هو البيت الأول، وأما **<u>بيته الثاني فهو المعهد</u>** الذي يتولى بنيانه العلمي والثقافي، إنه المدرسة أو الكلية أو الجامعة في مختلف مراحلها. ولا تختلف علاقة هذه المراحل ببعضها عن علاقة الطفولة بالشباب، ثم بالكهولة، وبما يليها من مراحل. إن مرور الفرد بهذه المراحل هو عمره التربوي والعلمي والمعرفي والثقافي، فيكون لهذا العمر الثاني طفولة وشباب وكهولة، إنه شجرة تُغَذى وتُرْوى بالماء، وتصان من كل أذى، ويُعتنى بها انتظارا لموسم العطاء والإثمار.

وإن من تمام التنمية الصحيحة أن يكون المُناخ الذي ينمو فيه المخلوق صحيا نظيفا غير مشوب بالأوبئة والجراثيم الفتاكة. فإذا نما شاب أو شابة في مجتمع علمي، سواء أكان مدرسة أم كان جامعة، لا يتضح فيه لهذا الشاب أو الشابة: لماذا خلق؟ وما وظيفته وقيمته في هذه الحياة؟ ومن خلقه؟ ومن رسوله؟ وليس لديه قواعد مستقيمة في قواعد الطعام والشراب وأسس التواصل مع الآخرين، وحتى لو قدم من بيئة تعرف هذه الأمور كلها، فإن احتمالات الزيغ عنده أكبر من احتمالات الاستقامة، لأن الحياة التربوية والثقافية تنضج بالتراكم الموجه في مُناخ طبيعي غير موبوء، تماما كالحياة الجسمية التي يتحقق فيها النمو السليم بالتراكم المبرأ من الأمراض الفتاكة.

وهكذا يكون الأمر مع التنمية اللغوية، فإذا وجد متعلم عربي في بيئة لا يُعنى مُعلموها فيها باللغة الفصحى، فأستاذ العربية يخاطب طلبته بالعامية، وبلهجته الخاصة، ويتفاعل معه طلبتُه بلهجاتهم، وهذا الأمر عنده طبيعي لا يثيره أو لا يستفزه، وكذلك أستاذ التاريخ وأستاذ الشريعة وأستاذ الرياضة وأستاذ العلوم وأستاذ الرياضيات، وكذلك مدير المعهد وغيرهم من الناس الذين يختلط بهم هذا الطالب في مجتمع المدرسة، فمن أين تأتيه اللغة الفصحى أو الفصاحة ؟ **!** ؟ **!** وفي تاريخنا الأدبي مثال يتوافق مع هذا الذي بسطناه يتعلق بمتعرب جاء من الفرس، ثم قرر أن يتعلم العربية وأن يبدع فيها، لأنها لغة الحضارة العالمية آنذاك، ليكون له دور في الحياة التي انخرط فيها، إنه بشار بن برد الذي قال عندما تعجب الناس من فصاحته : من أين

يأتيني اللحن وقد نشأت في بني عقيل؟ أي أن نشأته اللغوية كانت في قبيلة تشتهر بالبلاغة والفصاحة، فقد سمع منهم الكلام الفصيح، وتواصل معهم بالكلام الفصيح، فمن الطبيعي أن يكون فصيحا لا يلحن!
فتخيل، أخي القارئ، إذا كانت الصورة المزرية عن التنمية اللغوية التي رسمت لك قبل قليل معكوسة تماما! فالمتعلم يستمع إلى أستاذ يتقن العربية، ولا يتفاعل مع تلميذ أو طالب يتكلم بالعامية ! ويتفاهم مع زملائه داخل الصف وخارجه بالفصحى! وهكذا يفعل أساتذته الذين يدرسونه مختلف المواد المعرفية! وكذلك مدير المدرسة، وكذلك بقية أفراد المجتمع المدرسي ! عندئذ نقول : كيف لا يصبح هذا الفرد نسخة نموذجية في البناء اللغوي والاكتساب اللغوي !! فإذا تكاملت هذه الصورة مع ما أسسه البيت الأول في أحضان الوالدين، غدا المستقبل الذي ننتظره من هذه الثمار الطيبة واعدا بكل الخير والجمال.
ثم تخيل، عزيزي القارئ، أن هذا الشاب أو هذه الشابة قد تخرَّجَ أيٌّ منهما في الجامعة، بأي مستوى من مستويات العلم، فالتحق بمؤسسة أخرى في الطب أو الهندسة أو المصنع أو المدرسة أو...أو... وقد كان مستقيم القلب نقي الروح، وكانت لغته مستقيمة نقية، فإن تفاعله مع هذا المجتمع الجديد سيكون مؤثرا بانيا يتحمل فيه المسئولية التي تـُرْضي ربه، ثم تـُرْضي رسوله، ثم ترضي مسئوليه. أفلا يكون هذا النمط البشري الرائع خير مؤهل للإنتاج والعطاء ؟ ثم ألا يكون هذا أفضل استثمار حضاري للتقدم نحو المستقبل بخطى تملؤها الثقة بالنفس والإخلاص للأمة ؟ بلى، إنه كذلك.
أما الدولة الصغرى، وأعني هنا **البلديات** أوما يطلق عليه الحكم المحلي ، فشأنها، أو قل: دورها في التنمية اللغوية أعظم وأخطر، لأن البلدية هي البيت الثالث للشعب، وأبناؤنا الذين بذلنا، في سبيل إعدادهم الفكري واللغوي، الغالي والرخيص، وهم فلذات أكبادنا، هم من يديرون هذه المؤسسة المهمة ويوجهونها، وهم يتركون بصماتهم على حركة المجتمع الذي أصبح أمانة في أعناقهم. وعليه، فإننا إذا كنا صادقين في بنائهم فسَيَصْدُقوننا، وسيكون الخير وفيرا على أيديهم للمجتمع الذي ائتمنهم لخدمته، وإذا كنا غير ذلك فلا نلومنَّ إلا أنفسنا. والشاهد الذي أريد الإشارة إليه في موضوع البلديات أننا نلاحظ في الإعلانات وعناوين المحلات التجارية التغريب الذي يبعدنا عن التعريب، سِرْ في أي شارع من شوارع مدينة عربية، ثم انظر يمنة أو يسرة، ستجد أعاجيب لا تخطر ببال إنسان تربى على الفصحى والثقافة العربية التي وصفناها فيما مر بنا من حديث، سترى إعلانات أجنبية كتبت بأحرف عربية كقولهم : (نوفوتيه الوايت ليدي)، أي حانوت ملابس المرأة البيضاء !! فبمقدار ما ترى في معنى هذا العنوان أو الاسم من قبح وعنصرية وإسفاف خلقي، بمقدار ما ترى من فجاجة في التركيب اللغوي لاختلاط اللفظ الأجنبي باللفظ العربي على نحو مفزع ! ! ؟ ؟ أفيكون هذا الإسفاف مقبولا لموظف البلدية الذي أعددناه على نحو مضيء مشرق؟! أهكذا يكون التأصيل لشخصيتنا الفكرية والحضارية واللغوية ؟! ننسى لغتنا، بل نقتلها ونتقمص شخصية الأجنبي ! ألا يكون فِعْلـُنا هذا تناقضا بشعا في حياتنا ! نقول: إننا عرب أو مسلمون ثم نرطن بلغة أخرى ! ألِنـَتـَقـَدَّمَ فَعَلـْنا هذا أم لنلحق بالأجنبي الذي أخذنا نعتقد أنه نموذج للتقدم والرقي، والعكس تماما هو الصحيح !؟!؟ ما الذي دهانا ؟ وما الذي أصاب عقولنا ؟ ألهذا الحد أصبحنا ممسوخين !؟ إنها لطامَّة كبرى، أي والله !! ثم دَقّق ِ النظرَ في ما كتب بالعربية من إعلانات، أو لافتات للحوانيت، ستجد كثرة أخطائها اللغوية والإملائية مما لا يُقـْبل ولا يُحْتمل، ولو استشير في بعضها طالب نبيه من المستوى الابتدائي لأفتى في أمرها، ولكنه إصرار على ازدراء العربية، وعدم الاكتراث لنحوها وصرفها وإملائها، وهو إصرار مهين حقا. وإني لأتساءل: ما الذي يمنع البلديات الغيورة على لغتنا أن تفسح في برامجها وقوانينها لمتخصص ذكي في اللغة العربية فحص اللافتات والإعلانات لتنقيتها من الأخطاء اللغوية والعُجْمَة؟ أليس هذا الفضاء الفسيح مصدرا من مصادر

التكوين اللغوي لتلاميذنا ؟ أليس هذا الفضاء الذي يمتلئ بالأخطاء فضاءً مُلَوِّثا للغتهم وتنشئتهم اللغوية عندما تقع العينان على هذه الأخطاء فيلتقطها، ثم تدخل قاموسه ثقة منه بهذا المعروض، لأن الصغير يقلد الكبير، ويقلد ما يرى ويصعب عليه اكتشاف أخطائه؟!!

والآن يأتي دور أبنائنا الذين نذرناهم للبناء والتنمية، يأتي دور رئيس البلدية الباني الذي تربى في بيت يُعلي من شأن لغتنا، وفي معهد يُجل كذلك اللغة العربية، وقد تدرب على المكتوب والمنطوق بالعربية، الآن يأتي دوره ليُسْأل : لماذا أعطيتم هذا الاسم المخرب لذوقنا وتنشئتنا اللغوية رخصة لفتح حانوته؟ إن من اللازم أن لا يُعْطى رخصة، ولا يزاول مهنته هذه إلا بالشكل الذي ينسجم مع لغتنا، وذوقنا العام، لأنه إن سمحنا له أن يعمل بتلك المواصفات التي ابتدعها، وهي غير مقبولة، فكأننا نسمح بتلويث مجتمعنا بالتعري والفجور والفحش، وهذا ما لا يمكن لعربي عاقل، أو مسلم عاقل، أن يُرَوِّج له، لأنه مخالفة مجرمة لقيم الدين والشرع الحنيف، ولأنه ارتداد عن منهجنا الذي ارتضيناه. وهذا الذي سقناه مثال واحد نرتضيه لتوضيح الموقف اللغوي، ومما لا ريب فيه أن هناك أمورا كثيرة يكمن فيها الخطر لا بد أن نقف في وجهها لنحمي أبناءنا ومجتمعنا ومستقبلنا من التغريب، وما يتمخض عنه من أوضار ومهالك، وليس لهذا، والله، إلا أبناؤنا الذين تربوا على المنهج الغيور المعتز بدينه وكتابه ولغته وبشخصية أمته التي تأبى الذوبان في الآخرين الذين لا يستقيم سلوكهم مع منهج حياتنا وآمالنا الدنيوية والأخروية.

وأما **الإعلام** فأمره أعظم وأدهى وأمر، لأنه مرتبط بالسمع، إنه قناة ثرة لري الآذان وإطعامها، فإذا كان الماء لا يُسْتغنى عنه للحياة، فإن الإعلام لا يستغنى عنه في حياتنا المعاصرة، وقد يُوَظَّف لخدمة الحق حينا، ولخدمة الباطل أحيانا كثيرة. والإعلام وسيلة مؤثرة من وسائل التنمية اللغوية، فهو لا يقل خطرا عما يسمعه الطفل من أبويه وهو في مرحلة البناء اللغوي الأول، وخاصة إذا كانت طريقة العرض مسلية وجذابة فإن خطرها وتأثيرها أكثر. فإذا كان الإعلام، باختصار، مَعْلَماً من معالم التربية بعامة، والتربية اللغوية بخاصة، فما الذي نطلبه من إعلامنا في موضوع التربية اللغوية ؟ نطلب من إعلامنا أن يتقي الله ويخافه فيما يبث من كلام وبرامج، وعندما نقول: اتق الله ! فهذه ليست تهمة، ولا تثير الأضغان إذا عقلَـها المرء، فكلنا مطلوب منا أن نتقي الله في كل عمل من أعمالنا، والتقوى تحفيز لإتقان العمل وإجادته، ولما كانت مسئولية الإعلامي أخطر، فليتق الله أكثر! ونحن لا نطلب من الإعلامي، على الأقل، إلا أمرين : الأول أن يحرص على عرض اللغة الفصيحة ما استطاع إلى هذا سبيلا، لأن عرض هذه اللغة الصحيحة يساعد على متانة البناء اللغوي الذي اكتسبه أبناؤنا في البيت الأول، والبيت الثاني، والبيت الثالث كما تحدثنا عنها قبل قليل، أما عرض اللغة العامية واللهجات المتعددة فنحن نسمعها في كل حين، فنطلب ألا نسمعها في الوسيلة التربوية المُوَجِّهة، لأن العربية الفصحى ترتقي بأذواقنا وتوحد مشاعرنا، فهل نذيع ما يُفَرِّق ونترك ما يُوَحِّد ؟ وهل نعرض ما يصقل الذوق ويرفع مستواه، لأن سماع اللغة الفصحى، خاصة إذا كانت في قرآن أو حديث أو شعر أو نثر أو أغنية، فنٌّ رفيع، أم هل نعرض ما يحط الذوق، ويكون مدعاة للسخرية من الآخرين، لأن المتفق عليه والمعلوم، أن الإنسان لا تعجبه إلا لهجته، ولا يعجبه إلا منظره، ولو كان أقبح الناس، لأنه مفطور على الأنانية وحب الذات !؟! والأمر الثاني الذي نطلبه من الإعلامي أن يكون مضمونُ ما يعرضه بانيا لا هادما، يشد بنيان الخلق الحسن، ويُعلّم الناس العلم الحسن، ويربيهم التربية الحسنة التي تتفق وعقيدتنا وتاريخنا، وتستفز السامع بحيث يغير ما اكتسب من عادات سيئة ومفاهيم رديئة، وأن تعلمه العدل في القول والفعل، فإذا فعل الإعلامي هذا وعرضه بنصوصه الوضيئة من مصادرها الموثوقة فإن حسنه يزداد مرتين : مرة للحقيقة، ومرة أخرى للغة. ولضمان الجودة والتطبيق السليم في هذا المضمار،

أيصعب على المؤسسات الإعلامية أن تشترط في من يسعى إلى ولوج حصونها أن يكون مؤهلا لغويا، وأن تضمن هذا بفحص للقدرات والإمكانات؟ وهل يصعب عليها أن تؤهل موظفها لغويا؟**!**

وبعدُ، أفيكون من الإنصاف والعدل والحق، بعد أن تعبنا في إقامة هذا الصرح الشامخ، وبنينا هذا البنيان الجميل المتين في الفكر واللغة، وأعني أبناءنا الذين أحسنّا صناعتهم على النحو الذي وصفت فيما مر من فقرات، أن نرمي بهم في أحضان ثقافات تخالف عقيدتنا وتربيتنا، ثقافات متغوِّلة لا تعرف من أهداف الحياة إلا المادة بكل مظاهرها، والمتعة بكل ألوانها ؟**!**؟ نرسلهم إلى هناك ليضيعوا وليضلوا ولتأكلهم ذئاب العلمانية والإلحاد، وليخسروا دينهم وأخلاقهم، ثم ليعودوا إلى مجتمعاتنا ليـُمْعنوا في الهدم والتشكيك والاستخذاء للأجنبي الذي رباهم ليكونوا عبيدا لغرائزهم **!** ؟ **!** إنها **البعثات** التي يصفونها بالعلمية، وما أبعدها عن هذا الوصف **!** كم من شاب سنه صغيرة ذهب إلى أمريكا فتَاهَ وانحرف **!** وكم من شخص ذهب إلى هناك فاستمرأ العيش ولم يعد إلى بلاده **!** فخسر نفسه، وخسر أولاده الذين تركوا اللسان العربي والأخلاق العربية فأصبحوا من غير العرب **!**

إن مسالة البعثات إلى الدول الأجنبية يجب أن يُعاد النظر فيها، فلا يرسل إلى هناك إلا من كانت الأمّة في حاجة إلى علمه، ومن كان يُطمأن إلى ثباته ومقاومته المغريات التي تنصب على الآذان والعيون والأذواق هناك، كما يُطمأن إلى محافظته الشديدة على لغته ولغة أبنائه. فإذا كان أمر البعثات سينتهي إلى هذا الخسران المبين فلَبِئس الأمرُ أمرُها، ولَبِئس العلم علمها. وإنني أعيد وأكرر أننا لسنا ضد اتصال الأمم ببعضها، أو ضد دراسة اللغات الأجنبية، فهذا ما لا يمكن الهروب منه، ولكنني أدعو إلى البحث عن أسلوب البعثات المأمون، أي الذي لا يضر شبابنا ولا يفسدهم، ولا يحرمنا من أنهار المعرفة التي تتدفق في هذا العالم الذي نحيا فيه.

فإذا فرغنا من هذا كله، وأنتجنا أنماطا متقنة للغة، غيورة عليها، مطبقة لها في الميادين التي تعمل فيها، أصبحت التربة جاهزة لاستثمارها، وأصبحت السفينة تنتظر ربانا ماهرا ليقودها إلى شاطئ الأمان، وما هذا الربان إلا **السياسي** الذي يتصف بمواصفات القيادة الحكيمة والغيورة على كل ما يخص حياة الشعب واحتياجاته الكثيرة. وفي هذا المجال تهمنا العناية بالجانب اللغوي، وما نطلبه من السياسي أن يدرك أهمية اللغة وخطرها في حياة الشعب، فإذا كان قدوة لأبناء شعبه من حيث إتقانه لها نطقا وكتابة فإن هذا يكفي، لأن الشعب يتعلم من القدوة ما لا يمكن تحصيله بالوعظ والإرشاد. ويحضرني في هذا الأمر ما يروى عن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والأندلسيين حرصهم على الكلام الفصيح والبليغ حتى عبر عن ذلك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، عندما قال : شيبني صعودُ المنابر. أي أن السياسي، إذا صعد المنبر ليخاطب الناس، في أي شأن من شؤونهم، لا بد أن يحرص حرصا شديدا على لغته وعباراته فيختارها اختيارا، ويُعِدّها إعدادا. ومن الجميل أن يراقب السياسي كذلك وضع اللغة في المجتمع، وأن يحرص على إصلاح سفينتها إن كان فيها خلل ما، ومما يؤسف له في زماننا أن الخلل كثير وكبير، ولذلك فإن اللغة يجب أن تحظى من السياسي باهتمام خاص.

7)**<u>وصفة الترياق:</u>**

استوحيت هذا العنوان من طغيان هذا السم اللغوي المميت الذي استشرى في ألسنة عرب اليوم، فقلت في نفسي : لعل العلاج في دواء عزيز نادر، وهو الترياق الذي يدفع أخطار السموم. وللوضع اللغوي الذي نحن

فيه لم أجد ترياقا يناسب المقام كأن يقف المحب للعربية وقفة الفارس المقدام في الرأي والعمل ! فوقفته هذه هي ترياقه الذي يخفف عن نفسه السم أولا، ثم لعل ما قام به يدفع المتضررين إلى الاقتداء به للاستشفاء من السموم اللغوية التي تورطوا فيها. إن مسالة اللغة العربية، في هذا الزمان، معضلة من المعضلات الكبرى التي تعاني منها الشعوب العربية كافة، وهذا وضع غير مريح لنا، ولا لأبنائنا، ولا لكل غيور على مصالح أمتنا، فهل لها من ترياق يرد لها عافيتها ؟!؟. وإننا لنعي أن حل هذه المعضلة اللغوية، لا يمكن تحقيقه بسرعة، لأنها مرض اجتماعي، والمرض الاجتماعي يحتاج حله إلى الحكمة والصبر والانتظار، ولا يمكن أن يُحل بعصا ساحر أو حبة دواء. وعلى الرغم من تزاحم الصعوبات ومرارة الواقع فإنه لا مناص من السعي إلى الحل، وإعطائه التفكير اللازم والجهد المناسب. وعليه، فإن الحل العملي لهذه المعضلة يعتمد على عاتق الفرد ووعيه ومدى تعاون الآخرين معه. فكل فرد في الأمة سواء أكان فردا عاديا أم كان مسئولا في أي موقع لا مناص من أن يتحقق فيه أمران لتحقيق الحلم اللغوي المنشود والمُرْتجى:

1)الإيمان العميق الصادق بحب اللغة العربية، والوفاء لهذا الحب، وربط هذا الإيمان والحب والوفاء بتربية الأمة، وانتمائه إليها، وإخلاصه في تحقيق طموحاتها، فإذا كان هذا متحققا فلن يدَّخر المرء، عندئذ، وُسْعا في عمل أي شيء على مستوى نفسه أو بيته أو وظيفته أو مؤسسته، لنصرة اللغة العربية. ويجب أن يؤسس هذا الحب على العلم والخلق الحسن والجرأة والشجاعة في ترويج أفكاره عن العربية، وتطبيق ما يؤمن به على نفسه أولا بحيث يكون قدوة لغوية جاذبة دون وجل أو خجل أو توان.

2)التطبيق العملي الذي يتمثل في أن يمارس هذا الفرد المحب للغة العربية الذي وصفناه في النقطة السابقة أنشطة اللغة المنطوقة، أي يحاول ما استطاع أن يتحدث بالفصحى ورواية نصوص جميلة منها، وكذلك اللغة المكتوبة، أي بحرصه على تدوين مذكرات له أو نصوص أعجبته بخط جميل، ولا بد من أن نلمس هذه الممارسة في كلامه ومخاطبته الآخرين، وفي كتابته، وأن يكون قدوة لهذا التطبيق، فلا يغضبنَّ من منتقد له، أو مستهزئ منه، بل يتخذ هذا السلوك رسالة لا يتزحزح عن الاستماتة في سبيل إنجاحها.

ولئن تحقق هذا في الفرد فسيصبح المعيار اللغوي أساسا للحكم على الشخصية الممتازة، وأساسا من أسس المفاضلة بين الناس. وقد حرص أجدادنا على تحقيق هذا المعيار في حياتهم، فكان الخلفاء يعدون من سيخلفهم إعدادا لغويا قويا على نحو ما نعرف عن الرشيد الذي كان يؤدب أولاده على أيدي علماء اللغة والنحو. ولأن التخصص في اللغة لا يقبل عليه إلا ندرة من البشر، كما يلاحظ المفكرون، فقد جعل هذا المعيارَ اللغويَ ميزانا أساسيا في الحياة العامة، وما دام الأمر على هذا النحو فإن الاستثمار فيه لا يتقاعس في طلبه.

8) <u>الاستثمار المأمول:</u>

إنه لمن المتفق عليه عالميا، أن أهم عنصر من عناصر النهوض بالأمة، صناعة الإنسان الممتاز الذي سيقود سفينة العمل والأمل إلى شاطئ الرقي والتقدم، في مختلف ميادين الحياة، لتحقيق الحرية والكرامة والهناء للإنسان العربي المعذب. ولا ريب، عندي، في أن إتقان اللغة من العوامل المهمة في صناعة الإنسان الممتاز.

ومن هنا أستطيع القول بملء فمي: أعطني إنسانا ممتازا لأصنع لك العجائب، ونحن في أمس الحاجة إلى التغيير، والإنسان الممتاز هو الذي يجلب التغيير المثمر، ونحن نقول:المعلم هو خير من يعيننا على التغيير، وليس أي معلم يعينك في هذه المعضلة التي لا بد من أن نوجد لها حلا متقدما، فلا بد من معلم ذي مواصفات خاصة، وهنا يجدر بنا أن نبحث عن قلب المعلم قبل تخصصه، فإذا كان قلب المعلم لا يتضمن رسالة ربانية في تعليم العربية فإنه لا يصلح لتحقيق ما نطمح إليه من عزة لغوية، وسيكون هادما مدمرا. إننا نريد معلما يراقب أساليب تدريسه، ويتطلع إلى الإفادة من الآخرين للارتقاء بعمله وإفادة تلاميذه، ولا ضير، بل من الواجب، أن يفيد من أساليب تدريس اللغات الأخرى، حتى يكون عرض الموضوع أو إخراجه حيويا جذابا آسرا للقلوب والألباب، ولئن تطلب الأمر من المعلم أن يمثل موقفا ما يدخل السرور على قلوب تلاميذه،

ويزيدهم فهما للموضوع، فإن هذا من باب الواجب الذي لا مفر منه. وما أجمل أن يتمثل كل معلم من معلمينا، في سياق حديثنا عن المعلم الممتاز، ما كتبه ابن جماعة الكناني(-733هـ) في كتابه (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) لأنه درة مدهشة من درر التربية الإسلامية المغيبة عن حياتنا التعليمية.
وقد يسأل سائل كيف يتحقق ما تدعو إليه ؟ ومتى يصبح هذا حقيقة ملموسة ؟ وما الحل لهذه المشكلة اللغوية؟ وما الذي يدعونا إلى تجشم الصعاب لتحقيق مطلب صعب المنال؟ وما حاجتنا إلى العربية الفصحى وحياتنا تسير بدون معوقات؟ أقول: إن من حق الناس أن يتساءلوا، وأن يجدوا ما ندعو إليه غريبا، لأنه حديث عن ثورة لغوية شاملة تشمل الفرد والبيت والمعهد والمشفى والمصنع والشارع...الخ، ولا يشبه هذا الذي وصفت، وإليه تطلعت، إلا ثورة الإسلام العظيمة عندما كانت مثار استغراب واستفزاز واقتتال آل إلى انتصار مذهل، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأورث مريديه دينا عظيما في ثوب لغوي ساحر، وبيان لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله كما قال رب العالمين. وتنبثق العناية بالفصحى من أن المجتمعات تتطلع إلى المثل الأعلى في كل نشاط من أنشطة الحياة، لتشكل في كل مجتمع عقدا اجتماعيا مثاليا أو منظومة من المثل العليا التي تدفع إلى التنافس لتحقيق الأفضل والأمثل، ولجعل الحياة الإنسانية أجمل وأنقى. فالحياة، بدون العناية بنظافة الشوارع في المدينة، تسير بدون معوق، غير أن الإصرار على رمي النفايات في الشارع خرق لمثل أعلى هو النظافة المثالية التي إذا لم تعْمُرْ نفوس معظم أفراد المجتمع غلبت النفايات على الطرقات والشوارع فتعم الأوبئة والأمراض التي تفتك بالناس. ولا ريب في أن المجتمع الفاضل الممتاز هو المجتمع الذي يحافظ معظم أفراده على نجاعة هذه المنظومة من المثل في الحياة العامة لجعلها بعيدة عن الأمراض الاجتماعية التي تقتل النسيج المجتمعي وتضر به. والمجتمع في هذه الحالة لا يختلف كثيرا عن الشخص الذي يتوازن في احتياجاته الحياتية ويضبط نوازعه الكثيرة لينجو من الأمراض ومن السقوط الخلقي البشع. ومن هنا كانت العناية بالفصحى ضرورة وليست عبثا، لأن اللغة هي واسطة العقد في منظومة المثل العليا الضرورية لنجاح الحياة الاجتماعية. وإنما تكون الأمراض الاجتماعية وتطغى، لأن عددا من أفراد المجتمع تغلب على أخلاقه الأنانية، وتحقيق المصالح الخاصة بأيسر السبل، دون الالتفات إلى المصالح العليا للأمة، أو الوطن، أو العشيرة، فيسكت عنه الناس، فيقود هذا السكوت وتغاضيهم عما ارتكبه إلى إقرار هذا الخلل، ليصبح سلوكا اجتماعيا يصعب علينا الوقوف في وجهه والتخلص منه، وهذا ما حصل للعربية ومَثَلِها الأعلى وهو الفصحى في العصر الحديث. وهكذا فإن الحياة تسير بدون العناية بالفصحى وبدون تغليبها على العامية، ولكنه سير أعرج يخرق منظومة المثل العليا التي لا بد أن يصطلح عليها المجتمع العربي، وخاصة واسطة عقدها وهي اللغة الفصحى.
وبعد، فإن خلاصة الأمر أن اللغة الجيدة هي نتاج المناخ الصحي النظيف، وإن من واجبنا جميعا أن تتضافر جهودنا لصناعة هذا المناخ حتى يكون لدينا لغة جيدة ترفد صناعة الإنسان الممتاز وتعززها. إن صناعة المناخ الصحي واللغة الصحية هما اللذان يساعدان على صناعة الإنسان الممتاز الذي يمكن أن تسند إليه مهمة العمل والإنتاج والإبداع والمنافسة الشريفة على المستوى الوطني والعالمي. وإن مما نفخر به نحن، العرب، في هذا السياق، أننا نملك أجمل معيار لصناعة الإنسان المتميز، فالمثل العربي يقول:" إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ". لقد بـُني على هذا المفهوم الرائع الإنسانُ الجاهلي، وعندما جاء الإسلام هذبه تهذيبا، وزاده جمالا واستقرارا إذ ربطه بمعرفة الله وهدي رسوله والكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فجاد علينا القدر، بفضل هذا المنهج الخلقي والتربوي المتميز، بنماذج بشرية أضحت نجوما يهتدى بها في مجالات الفتوح والعلوم والثقافة واللغة والأخلاق والسياسة والحكم الرشيد، وأصبحت سيرها منارات هداية ورحمة للناس أجمعين، وعلى هذا الهدي سار المتعربون الداخلون في الإسلام فأبدعوا في العلوم جميعا.
إن ما تتطلع إليه الإنسانية المعذبة، في عالمنا المعاصر، من سلم ورفاهية وتعاون، لا يمكن تحقيقها جميعا إلا إذا أسندت مهمة هذا التحقيق لأناس محصنين من العيوب الفكرية والأخلاقية. وإن ضمان الاستثمار والعدل فيه يكمن في إيجاد الإنسان الممتاز الذي يتصف بالوحدة الجميلة بين خـُلـُقه وعمله من أجل الناس

والبشرية جمعاء. وهكذا فإن المعادلة الصحيحة تتمثل في إيجاد المناخ الجيد واللغة الجيدة لضمان الحصول على الإنسان الجيد الذي يُطمأن إليه في إدارة الأمور والمصالح وتنفيذها. ولهذا كان الاستثمار في الإنسان الذي يملك أرضية خلقية تنمو في أحضانها الملكة اللغوية هو الاستثمار الصحيح والنافع لضمان استمرار الفلاح والصلاح لأمتنا.

9)**خاتمة :**

لقد عرضنا، في الفقرات السابقة، قضايا تهدف إلى تأكيد حقيقة مهمة، وهي أن تحصيل اللغة العربية الفصحى محتاج إلى تربة صحية ومناخ صحي، ويبدو أن ما يقوله بعض العارفين في مجال صلاح الأمة، حيث يُقال: لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ينطبق تماما على صلاح اللغة العربية، إذ يمكننا القول: لا تصلح هذه اللغة اليوم إلا بما صلح به أولها. لقد صلحت العربية في ماضينا المشرق بوجودها في مجتمع يحمل رسالة عظيمة هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وبكتاب تجسدت فيه هذه الرسالة تجسدا بليغا وفصيحا وجميلا، كأن حروفه وكلماته وجمله لآلئ تخطف الأبصار والألباب والأرواح، إنه القرآن العظيم. ولذلك جاءت اللغة إلينا منهم كاملة تتسم بكل مواصفات الجمال والبيان، لأنها نتيجة اندماج النظرية بالفعل، فاكتسبت سمة الخلود والقوة كالذهب الخالص الذي لا يفسد على مدى الأيام والدهور، ولا يمكن أن يعتريها مرض أو خلل، وتصلح أن تكون منارة هداية وطريق عمل، في أي زمان وفي أي مكان. فهذه معادلة الخلاص وترياقه الذي لا مفر منه إن أردنا لغة قوية كالتي أورثناها أجدادنا، ومن المؤسف أن هذه المعادلة غير متحققة في كيان أمتنا المعاصر وحياتها. ونحن لا نعتسف القول عندما نعلن أن إتقان العربية مرتبط بالقرآن وبالمجتمع الذي يتربى على آياته، فقد أدرك المستشرقون هذه المعادلة، ولذلك كان الجاد منهم يبدأ مشواره في اكتساب العربية بتعلم التجويد والتفسير.

ومن حسن حظنا، نحن العرب والمسلمين، ومن لطف الله بنا، أن خلاصة هذا الترياق من هذين الأمرين: مجتمع الرسالة وكتابها الكريم مدخرة ومتيسرة لنا بكل قوة، وبوسائل لم تكن متاحة أبدا لأجدادنا العظماء الذين ندين لهم بإيصال هذين الأمرين لنا، وإنا لَنَعْلَمُ علم اليقين أنهم ضَحَّوْا في سبيل ذلك بأرواحهم ودمائهم وكل غال وثمين. ولذلك كان الفرق الكبير بيننا وبين أجدادنا أنهم تمثلوا هذين الأمرين، وحافظوا عليهما وضحوْا من أجلهما، ونحن لم نفعل شيئا من هذا، فطَمِع الأشرار فينا طَمَعَ الذئب في فريسته، فكانت اللغة من المغانم التي خضعت لإفساد الأجنبي، لأنهم عرفوا ويعرفون خطرها، وقد استجبنا لهذا الإفساد فزدنا الطين بلة.

ولأن اللغة تمثل روح الأمة وخلاصتها لابد من التشبث بها، وبث الحياة فيها على أيدي الشباب الطامح الواعي الذي هو رأسمال هذه الأمة، وذخيرتها المدخرة، وجوهر استثمارها الحضاري. ولا مناص لهذا الشباب من اعتبار اللغة العربية تاجا مميزاً لشخصياتهم ولحضارتهم الرائدة، وعندئذ يكون البعث الواعد لهذه الأمة بكل شارات التميز والإبداع الذي قدمته للإنسانية في الماضي القريب ويزيد بفضل خبراتها الغنية في العصر الحديث، والله أعلم.

المراجع :

1- د.رمضان عبد التواب، **فصول في فقه العربية** ، مكتبة الخانجي ودار الرفاعي، القاهرة والرياض، 1404هـ - 1983م
2- الزمخشري ، **المفصل في علم العربية** ، دار الجيل ، بيروت ، 1323هـ
3- د.شوقي ضيف ، **العصر العباسي الأول** ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1966
4- د.صبحي الصالح ، **دراسات في فقه اللغة**، دار العلم للملايين /ط 9 ، بيروت، 1981
5- عبد الأمير شمس الدين، **المذهب التربوي عند ابن جماعة**، دار اقرأ للنشر والتوزيع، 1986م
6- د.عبد الكريم مجاهد ، **علم اللسان العربي** ، منشورات جامعة القدس المفتوحة، القدس، 2009
7- د.عبده الراجحي ، **فقه اللغة في الكتب العربية** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1974

8- = = ، **النحو العربي والدرس الحديث**، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م
9- د.إسماعيل عمايرة، **المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية**، دار الملاحي ، إربد، 1408هـ -1987م
10-د.علي عبد الواحد وافي ، **فقه اللغة** ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1388هـ/ 1968م
11-أ.د. فرحان السليم ، مقالة بعنوان : **اللغة العربية ومكانتها بين اللغات**، موقع Google.
12-فندريس ، **اللغة** (ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص)، مكتبة الأنجلو مصرية/القاهرة، 1950م
13-د.محمد المبارك ، **فقه اللغة وخصائص العربية** ، دار الفكر ، دمشق، 1401هـ/1981م
14-د. محمد محمد حسين ، **الإسلام والحضارة الغربية** ، دار الرسالة، بيروت، 1401هـ/1981م
15- ــــــــــــــــــــ ، **مقالات في الأدب واللغة** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1407هـ/1986م
16-د.محمود حجازي ، **أسس علم اللغة العربية**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979
17-أ.د.نهاد الموسى وآخرون، **علم الصرف** ، جامعة القدس المفتوحة ‘ القدس، 2009
18-ولفنسون ، **تاريخ اللغات السامية**، دار القلم، بيروت،1980م
19-د. يعقوب بكر، **العربية لغة عالمية**، نشر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، 1966